ظاهرة القلب في البلاغة العربيّة بين العيوب والفوائد

م.م. ساره جبار محمود
mbasica10te@uodiyala.edu.iq
جامعة ديالى/ كلية التربية الإساسية

الملخص

القلب البلاغيّ مصطلح متداول لدى البلاغيين، وهو يتمّ بجعل أحد أجزاء الكلام مكان الآخر، وذلك بتغيير الرّتب الإسناديّة، أو مواضع الكلم، أو صورة التّركيب ودلالته إلى صورة سابقة، أو أخذ كلّ جزء حكم الجزء الآخر وموقعه الإعرابيّ.

والقلب هو تحويل وعكس، وهو سنّة رئيسة من سنن البلاغة العربيّة الدّالّة على عظمة لغتنا، وثراء أدواتها وأساليبها، ولاسيّما أنّ القلب يكشف جمالاً خاصّاً استثمره المبدعون، وتفنّنوا في صوره؛ إذ أخرجوا الكلام عن مقتضى الظّاهر، فأعطوا نصوصهم طاقة نصِّيّة مليئة بالقوّة والفصاحة.

ولقد اختلفت الآراء حول القلب، فرفضه بعضهم بحجّة أنّ الغاية من البيان والبديع واللغة العربيّة عموماً الإفهام والإمتاع، والقلب يناقض ذلك في رأيهم؛ لأنّ الكلام حُرِف عن وجهه الصّحيح، فكان ممّن أيّد القلب السّكّاكي والفرّاء والقزوينيّ وشُرّاح التّلخيص، وممّن رفضه سيبويه وقدامة بن جعفر وابن سنان والقرطاجنّي.

والقلب ليس ظاهرة بلاغيّة تتمثل في تحويل وعكس فقط، بل هو تحوّل دلاليّ يجعل المُخاطِب والمُخاطَب ينعمان بعمق اللغة العربيّة وثرائها.

الكلمات المفتاحيّة: القلب البلاغيّ، البيان، المعاني، البديع، العيوب، الفوائد.

M.M. Sarah Jabbar Mahmoud

University of Diyala / College of Basic Education / Department of Arabic Language

Abstracr

The rhetorical heart Is a term used by rhetoricians, and It is accomplished by placing one part of speech In the place of anotherr, by changing the attributive ranks, the positions of the words, or the form of the structure and Its meaning to a previous form, or taking each part as the same as the other part and Its grammatical position.

The heart Is a transformation and a reversal, and it Is a major Sunnah of Arabic rhetoric that Indicates the greatness of our language, and the richness of Its tools and methods, especially since the heart reveals a special beauty that the creators have invested in and mastered in its forms. As they took the speech away from the apparent implications, they gave their texts a textual energy full of strength and eloquence.

Opinions differed about the heart, with some of them rejecting it under the pretext that the purpose of the statement, the beautiful, and the Arabic language in general Is to make people understand and enjoy, and the heart contradicts that In their opinion. Because the speech was distorted from its correct meaning, so he was among those who supported Al-Qalb Al-Sakaki, Al-Farra', Al-Qazwini, and Sharh Al-Talkhees, and among those who rejected It were Sibawayh, Qadamah bin Jaafar, Ibn Sinan, and Al-Qurtajni.

The heart Is not only a rhetorical phenomenon of transformation and reversal, but rather It is a semantic transformation that makes the addressee and the addressed enjoy the depth and richness of the Arabic language.

Keywords: the rhetorical heart, the statement, the meanings, the wonderful, the flaws, the benefits.

المقدّمة:

ظاهرة القلب إحدى الظّواهر البلاغيّة المهمّة التي شغلت حيّزاً كبيراً في الدّراسات البلاغيّة، وكان لهذه الظّاهرة حضور في الدّروس النّحويّة والصّرفيّة والبلاغيّة، ولهذه الظّاهرة مقاصد وأبعاد تأثيريّة في المتلقّي، وقد آثرنا الخوض في هذه الظّاهرة، فاخترنا العنوان الآتي: (ظاهرة القلب في البلاغة العربيّة بين العيوب والفوائد).

أهمّيّة البحث:

تنبع أهمّيّة البحث من أثر ظاهرة القلب في اللغة العربيّة في إغناء الميدان النّقدي والإبداعيّ، بما يحقّق لها الإيجاز والفصاحة معاً.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى تقصّي ظاهرة القلب البلاغيّ وإبراز جوانبها، وبيان عيوبها ومزاياها.

منهج البحث:

أفاد البحث من المنهج الوصفيّ بأداته التّحليل، الذي أتاح لنا فرصة عرض الظّاهرة، وإضاءة جوانبها، والتّعليق عليها.

منهجيّة البحث:

لقد بُني البحث وفقاً للهيكليّة الآتية:

- مقدّمة
- المبحث الأوّل: مفهوم القلب عند البلاغيين
- المبحث الثاني: أنماط ظاهرة القلب في البلاغة العربيّة
- المبحث الثالث: عيوب ظاهرة القلب
- المبحث الرّابع: فوائد ظاهرة القلب
- خاتمة
- ثبت المصادر والمراجع

المبحث الأوّل: مفهوم القلب عند البلاغيين:

قبل الولوج في مفهوم القلب عند البلاغيين سنتحرّى دلالة القلب لغويّاً واصطلاحيّاً.

القلب لغة:

ورد في لسان العرب، مادّة (قلب) ما يأتي: قلْب الشّيء: صرفه عنه وتحويله عن وجهه الذي يُريده، وقلَبت الشّيء: أي كببته، وقلّبته بيدي، ورددته من جهة إلى جهة، ونرى تلكم الدّلالات في قوله تعالى: ﴿**لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورُ**﴾[١]، أي صرفوها من أمرٍ إلى أمر، ونظروا في عواقبها، وفي قوله تعالى: ﴿**فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ**﴾[٢]، ويقال: قلّبت الثوب: أي رددته من جهة إلى جهة[٣].

وظاهرة القلب إحدى الظّواهر البلاغيّة التي اكتنزت بها كتب البلاغة، كما وجد هذا المصطلح ومرادفاته في كتب التّفسير والبلاغة والنّحو والصّرف وغير ذلك ممّا يفصح عن أهمّيّته.

القلب اصطلاحاً:

القلب في التّعريف الاصطلاحيّ هو "أن يجعل أحد أجزاء الكلام مكان الآخر، والآخر مكانه على وجه يثبت حكم كلّ منهما للآخر"[٤].

[١] سورة التّوبة، الآية ٤٨.

[٢] سورة غافر، الآية ٤.

[٣] ينظر: ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت – لبنان، د.ت، مادّة (قلب).

[٤] التّفتازاني: شروح التّلخيص، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، ج١/٤٨٧.

وظاهرة القلب موجودة في لغتنا العربيّة وغيرها من اللغات المشابهة، لكنّها لا تحمل ذاك الجمال إلا في اللغة العربيّة؛ لأنّها "ملمح من ملامح الجمال، وسمة من سمات الفنّ الرّفيع، تنتظم في النّصّ كلّه، فنجدها في بنيته اللغويّة، وفي بنيته التّصويريّة، وفي معانيه وإيقاعاته"[١].

وقد عُرِّف بأنّه: "شعبة من الإخراج لا على مقتضى الظّاهر، ولها شيوع في التّراكيب، وهي ما يورث الكلام ملاحة، ولا يشجّع عليها إلا كمال البلاغة"[٢].

وقد قيل أيضاً: إنّ القلب "ظاهرة أسلوبيّة في العربيّة، نزل بها القرآن الكريم ليخاطب بها أبناء هذه اللغة"[٣].

وهذا التّعريف يُبيّن انطلاق ابن هشام لتعريف هذا اللون البلاغيّ مستنداً إلى قوّة حضوره في القرآن الكريم، وأثر ذاك الحضور في المتلقّي.

ظاهرة القلب لدى البلاغيّين:

تقع ظاهرة القلب لدى البلاغيّين في العمليّة الإسناديّة؛ إذ يعدوّنه خروجاً عن مقتضى الظّاهر، ووجهاً من وجوه بلاغة المتكلّم؛ لأنّ مباحث القلب موزّعة بين مصنّفات البلاغيّين والنّحويّين والصّرفيّين[٤]، وهذا يعني تغيير مواضع الكلم وترتيبها في السّياق، أو أخذ المفردة حكم غيرها وموقعها، أو هو تغيّر صورة التّركيب ودلالته إلى ما كان عليه سابقاً؛ إذ "يخرج عن مفهوم القلب ما وقع في تركيب الكلام تبادلاً بين جزأين من أجزائه، ولم يثبت حكم كلّ منهما للآخر، كالتّقديم والتّأخير، والبناء لما لم يُسمَّ فاعله، ففي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ**﴾[٥]، تقديم وتأخير بين اسم إنّ وخبرها، وبقي المُقدَّم على حكمه، وهو (إلينا)، والمُؤخّر كذلك، وهو (إيّابهم)، وفي قوله تعالى: ﴿**وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً**﴾[٦]، حُذف الفاعل، وأُقيم المفعول به (الإنسان) مقامه، فجرى عليه أحكامه"[٧].

وممّا قالوه في تعريف القلب أيضاً أنّه خصوصيّة فنّيّة في لغة الشّعر التي تُجيز ما لا يُجاز، لتحقيق قيمة بلاغيّة لا يصحّ الكلام إلا بها[٨].

[١] الزّهراني، صالح: جماليّات القلب في البلاغة العربيّة، مجلّة جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، العدد١٩، جمادى الأولى، ١٤١٨ هـ، ص٣٧١.

[٢] السّكّاكي: مفتاح العلوم، المكتبة العلميّة الجديدة، بيروت – لبنان، ص١٠١.

[٣] ابن هشام الأنصاريّ: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: مازن مبارك، ومحمّد حمد الله، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط٥، ١٩٧٩م، ص٩١١.

[٤] ينظر: ابن فارس، أحمد: الصّاحبي في فقه اللغة العربيّة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق: عمر الطّبّاع، مكتبة المعارف، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩٣م، ص٢٠٨.

[٥] سورة الغاشية، الآية ٢٥.

[٦] سورة النّساء، الآية ٢٨.

[٧] اليحيى، سامي: القلب البلاغيّ في الحديث الشّريف، مجلّة كلّيّة اللغة العربيّة بالمنوفيّة، العدد٣٥، ديسمبر ٢٠٢٠م، ص٤٢٣٩.

[٨] ينظر: أبو سعيد السّيرافي: ضرورة الشّعر، تحقيق: رمضان عبد التّوّاب، دار النّهضة العربيّة، بيروت –لبنان، ط١، ١٩٨٥م، ص٦٦.

ولقد تكرّرت تسميات القلب لدى البلاغيّين، ومنها: التّحويل والعكس، فمن التّحويل أن نقلب أمور الأشياء، فنقول: أدخلت الخفّ في رجلي، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ**﴾[١]، وفي الواقع إنّ العصبة تنوء بالمفاتيح، وهذا ممّا ورد في القرآن الكريم، وممّا جاء في كلام العرب من التّحويل[٢]، فلفظ تحويل استخدمه المبرّد في كتابه، واستعمله آخرون من من بعده.

ومن المُسمّيات (العكس)، ونجد هذا المُسمّى لدى البيضاويّ عندما فسّر قوله تعالى: ﴿**كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ**﴾[٣] قائلاً: "فالتفّ بسببه، وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثفه، أو نجع في النّبات حتّى روي وردف، وعلى هذا كان حقّه فاختلط بنبات الأرض، لكنّه لمّا كان كلّ من المختلطين موصوفاً بصفة صاحبه عكس للمبالغة في كثرته"[٤].

وظاهرة القلب كانت عتبة لتجارب بلاغيّة كثيرة في الدّرس البلاغيّ المعاصر، فالقلب ظاهرة قديمة، وهو حاضر في أشعار الطّبقة المجلية من شعراء العصور الأولى الذين قامت اللغة على كلامهم، وشرح غريب القرآن والحديث بأشعارهم، فهو مقبول عندهم، أمّا عند متأخّري الشّعراء فلا يصحّ قبوله، وإلى هذا ذهب الآمدي[٥].

ونحن نُعرّف القلب بأنّه ظاهرة من ظواهر التّغيير البنائيّ للمفردة من أخرى، أو التّغيير المكانيّ لموضع الحرف في الكلمة الواحدة، بهدف تقديم معنى إضافيّ، يعجز الوضع الأصليّ، ما قبل التّغيير، عن الإتيان بمثله.

المبحث الثاني: أنماط ظاهرة القلب في البلاغة العربيّة:

تشمل البلاغة العربيّة علوماً عديدة، هي: البيان والبديع وعلم المعاني، وسنُبيّن ورود هذه الظّاهرة في كلّ منها:

١- أنماط ظاهرة القلب في البيان:

للبيان صور شتّى تحمل كلّ صورة من صورها عمقاً في إبراز دلالة ما، وهذا يوسّع أفق المتلقّي، ويجعله يستقبل الحقائق الدّلاليّة بكثير من اللذة والرّضا، وذلك بتعدّد وسائل التّصوير التي تُشكّل منها الصّور.

[١] سورة القصص، الآية ٧٦.

[٢] ينظر: المبرّد: ما اتّفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد، تحقيق: أحمد أبو رعد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، الكويت، ط١، ١٩٨٨م، ص٨٤.

[٣] سورة الكهف، الآية ٤٥.

[٤] أبو سعيد البيضاوي: تفسير البيضاوي، تحقيق: محمّد حلّاق، ومحمود الأطرش، دار الرّشيد، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٠م، ج٣٤١/٢٤.

[٥] ينظر: الآمدي: الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتري، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة – مصر، ط٢، ١٩٧٢م، ج٢١٧/١.

والمبدع قد يقلب الصّورة لتخالف حقائق الأشياء، مانحاً كلامه الفصاحة، وهذا القلب يتمّ "بأن يجعل المشبّه به مُشبّهاً، والمُشبّه مُشبّهاً به"[١].

وبما أنّ الأدب فنّ من فنون التّصوير الإبداعيّ، فمن الطّبيعيّ أن يستمدّ هذا الفنّ قيمته من التّصوير الذي يقدّم المعنى حسّيّاً، بعيداً عن التّجريد، ولاسيّما عندما يصوّر الأديب أو المبدع تجربته، ويحدّد موقفه من معطيات الوجود، ويقوم بنقلها إلى المتلقّي بإتقان وفنّ.

لكنّنا إذ نستقرئ الصّور جماليّاً نقف على مواطن كثيرة لقلب التّشبيه، وأوّل من تحدّث عن قلب التّشبيه ابن جنّي، وسمّاه غلبة الفروع على الأصول؛ إذ قال: "هذا فصل من فصول العربيّة طريف، تجده في معاني العرب، كما تجده في معاني الإعراب، ولا تكاد تجد شيئاً من ذلك إلّا والغرض فيه المبالغة، فممّا جاء فيه ذلك للعرب قول ذي الرّمّة:

ورمل كأوراك العذارى قطعته

إذا ألبسته المظلمات الحنادس

أفلا ترى ذا الرّمّة كيف جعل الأصل فرعاً، والفرع أصلاً، وذلك أنّ العادة والعرف في نحو هذا التّشبيه أن تُشبّه أعجاز النّساء بكثبان الأنقاء، ألا ترى قوله:

ليلى قضيب تحته كثيب

وفي القلاد رشا ربيب

وإلى قول الآخر:

خلقت غير خلقة النّسوان

إن قمت فالأعلى قضيب بان

وإن تولّيت فدعصتان

وكلّ إدٍ تفعل العينان

فقلب ذو الرّمّة العادة والعرف في هذا، فشبّه فيه كثبان الأنقاء بأعجاز النّساء، وهذا كأنّه يخرج مخرج المبالغة، أي قد ثبت هذا الموضع، وهذا المعنى لأعجاز النّساء، وصار كأنّه الأصل فيه حتّى شبّه به كثبان الأنقاء"[٢]، وفي هذا إشارة واضحة إلى آليّة التّغيير من أمر إلى آخر، ومن الأصل إلى الفرع؛ لذا قال: غلبة الفروع على الأصول، فما كان من معنى مشهور، حتّى لو لم يكن أصلاً، ساد وذاع وأصبح أصلاً في نظر المُتلقّين والمُخاطَبين، وهذا يقتضي سياق القول في قلب طرفي التّشبيه، فيصبح المُشبّه مُشبّهاً به، والمُشبّه به مُشبّهاً.

[١] ابن الأثير: المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تحقيق: محمّد عبد الحميد، المكتبة العصريّة للطّبّاعة والنّشر، بيروت – لبنان، ج٢/١٢٥.

[٢] ابن جنّي: الخصائص، تحقيق: محمّد علي النّجّار، الدّار العلميّة، القاهرة – مصر، ج١/٣٠٠-٣٠٢.

من المعروف في علوم البلاغة أنّ "الغرض من حال التّشبيه أن يكون المُشبّه به أعظم حالاً من المُشبّه في كلّ أحواله، وقد يأتي على العكس، كقول من قال:

وبدا الصّباح كأنّ غرّته

وجه الخليفة حين يُمتدَحُ

فبالغ حتّى جعل المشبّه أعلى حالاً من المُشبّه به، في الوضوح والجلاء؛ لأنّ الغالب في العادة هو تشبيه بياض الوجه بغرّة الفجر، فأمّا ههنا فعلى العكس من ذلك"[١].

وهذا الأمر نلمسه في حياتنا عندما نريد أن نبالغ في وصف شيء، كقولنا: (القمر فتاة)، ومن المنطقيّ أن تكون الصّورة: (الفتاة قمر)، فقد قلبنا طرفي التّشبيه لنعطي السّياق مبالغة في وصف جمال الفتاة، فقالوا: "عندما يأتي الشّاعر ويبني تشبيهه على خلاف هذا النّسق الذي انسجمت فيه الذّائقة، واستقرّ عليه الحسّ الجماليّ فإنّما يفعل ذلك ليُحقّق قيمة بلاغيّة لا تتحقّق مع هذا النّسق المطرود، من غير تلاعب بجماليّات اللغة، وتعالٍ على الحسّ الجماليّ للفنّ، وتشويه للذوق الذي تشكّل في ظلاله وعي الأمّة"[٢]، وهذا يعني أنّه لم يكن هناك إجماع على ضرورة قلب التّشبيه للوصول إلى الجماليّة المبتغاة في القول الأدبيّ.

ويعدّ عبد القاهر الجرجانيّ ممّن أضاء فكرة التّشبيه المقلوب، وتحدّث عنه بفلسفة جماليّة خاصّة، فقد قال: "جملة القول أنّه متى لم يقصد ضرب من المبالغة في إثبات الصّفة للشّيء، والقصد إلى إبهام في النّاقص أنّه كالزّائد، واقتصر على الجمع بين الشّيئين في مطلق الصّورة والشّكل واللون، أو جمع وصفين على وجه يوجد في الفرع على حدة، أو قريب منه في الأصل، فإنّ العكس يستقيم في التّشبيه، ومتى أريد شيء من ذلك لم يستقم"[٣]، فقوله: (النّاقص) هو ذاك النّوع الذي لا يجوز فيه أن نقلب التّشبيه؛ إذ يتشوّه السّياق بعدم تقديم هذا القلب؛ أي معنى

وممّا ورد في التّشبيه المقلوب "قول الرّفاء:

وكم خرق الحجاب إلى مقام

توارى الشّمس فيه بالحجاب

كأنّ سيوفه بين العوالي

جداول يطّردن خلال غاب

ويقول ابن الرّومي:

على حفافي جدول مسجور أبيض مثل المهرق المنشور

أو مثل قنّ الصّارم المشهور

[١] العلوي، يحيى: كتاب الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٠م، ج٣/٣٢٧.

[٢] الزّهراني، صالح: جماليّات القلب في البلاغة العربيّة، ص٣٩٢.

[٣] الجرجاني، عبد القاهر: أسرار البلاغة، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة – مصر، ط١، ١٩٨٥م، ص١٧٤.

ثمّ يقلبون أحد طرفي التّشبيه على الآخر، فيشبّهون السّيوف بالجداول"[١]، وهنا نجد أنّ عكس معادلة التّشبيه تحوّلت من:

الأعلى ← الأدنى

المُشبّه به ← المُشبّه

فصار المُشبّه مُشبّهاً به، وصار المُشبّه أدنى في الصّورة من المشبّه به، بينما في الواقع فالأمر على النّقيض تماماً.

إنّ "العلاقة بين الماء والسّيف لا تقف عند البياض والبصيص والاستطالة، فهناك علاقة أقوى معها تتكشّف رؤية الشّعر العميقة، فحين يُشبّه الشّاعر النّهر بالسّيف، فإنّه يدرك ما للماء من قوّة، ومن رهبة، كتلك القوّة والرّهبة الكامنة في السّيف، وحين يقلب المعادلة، يقيم العلاقة على جهة أخرى يصبح معها السّيف جدولاً مطّرداً يستنهض الحياة في رفات الموتى، وزرعها بين أشلائهم المحطّمة"[٢]، وهذا يوحي بأساس النّظرة البلاغيّة إلى هذا الأسلوب البلاغيّ الذي أن حضوره قديماً قدم حاجة الإنسان إلى التّعبير.

ونجد أيضاً أنّ ظاهرة القلب تصيب التّمثيل، وهو ليس له من القّوة والسّعة ما للقلب في التّشبيه؛ لأنّ طريقة القلب إذا وردت في التّمثيل، كان مبنياً على ضرب من التّأويل والتّخيّل يخرج عن الظّاهر خروجاً ظاهراً، ويبعد عنه بعداً شديداً[٣]، ولو تأمّلنا مثالاً حول ذلك لوجدنا قول الحطيئة:

قومٌ همُ الأُنُفُ والأذنابُ غيرهم

ومن يسوي بأنف النّاقةِ الذّنبا

فقد "نفى العار، وصحّح الافتخار، وجعل ما كان ناقصاً وشيّناً، فضلاً وزيناً، وما كان لقباً وبَذّاً يسوء السّمع، شرفاً وعزّاً يرفع الطّرف، وما ذاك إلّا بحسن الانتزاع، ولطف القريحة الصّناع، والذّهن النّاقد في دقائق الإحسان والإبداع، كما كساهم الجمال من حيث كانوا عرّوا منه، وأثبتهم في نصاب الفضل من حيث نفوا عنه، فلربّ أنفٍ سليمٍ قد وضع الشّعر عليه حدّه فجدعه، واسم رفيع قلب معناه حتّى حطّ صاحبه ووضعه"[٤].

ويمكن القول إنّ قلب أركان التّشبيه، أو ما يجري على الصّور الفنّيّة من ظاهرة القلب يعطي إشراقاً دلاليّاً يوسع أفق التّلقّي، ويقوّي دعائم الفصاحة.

٢- أنماط ظاهرة القلب في البديع:

البديع في اللغة العربيّة لفظيّ ومعنويّ، يطرأ عليه تغيّرات عدّة في كلا النّوعين؛ إذ نجد في البديع اللفظيّ "أن يكون الكلام بحيث لو عكست قراءته الأولى بأن بدأت بحرفه الأخير ثمّ بما

[١] الجرجاني، عبد القاهر: أسرار البلاغة، ص٢٢٦.

[٢] ناصف، مصطفى: دراسة الأدب العربيّ، دار الأندلس، بيروت – لبنان، ط٣، ١٩٨٣م، ص٢١١.

[٣] ينظر: المرجع السّابق، ص٢١١.

[٤] الجرجاني، عبد القاهر: أسرار البلاغة، ص٣٤٣.

يليه... كان الحاصل من ذلك العكس هو هذا الكلام بعينه"[١]، وقد استعمل البلاغيّون القلب في إبداعاتهم، وكشفوا عن قيمه الفنّيّة والجماليّة وأسسه الشعوريّة والموسيقيّة.

وينبع الإيقاع من المكوّنات البديعيّة الآتية: التّصريع، التّرصيع، الجناس التّام، الجناس النّاقص، الجناس الاشتقاقي، ردّ العجز على الصّدر، وغير ذلك من المكوّنات البديعيّة اللفظيّة، لكن كثير من المبدعين جعل القلب يصيب الإيقاع الدّاخليّ للنّصّ الأدبيّ الذي ابتكروه، فنجد منهم الآتي:

- **جناس القلب:**

وهو نوع من أنواع البديع اللفظيّ، يحدث في الحروف وفي الألفاظ معاً، وفقاً للآتي: "١- جناس القلب في الحروف: وذلك بقلب حروف الكلمة أو بعضها، وهو قسمان: آ- قلب كلّ. ب- قلب بعض"[٢]، ولو تأمّلنا النّوع الأوّل لوجدنا معظم حالاته قلب حروف الكلمة بتقدّم ما كان متأخّراً، فـ "يتأخر ما كان متقدّماً، كما في قولهم: حسامه فتح لأوليائه، حتف لأعدائه، أو قول الشّاعر:

حسامك فيه للأحباب فتح

ورمحك فيه للأعداء حتف

فقد وقع القلب في كلمتي (فتح) و (حتف)، فليست الثانية إلا الأولى، وقد تأخّرت ما كان مقدّماً من حروفها، وتقدّم ما كان مؤخّراً"[٣]، وهذا الجناس هو نوع من الجناس غير التّام، ومثله قولنا: (نفع، عنف)، (بحر، حبر، رحب، ربح)، وغير ذلك من حالات ينطوي تحتها هذا الجناس.

ولو تأمّلنا حالات القلب في صيغ كلاميّة، لوجدنا أنّه قد يقع القلب في البيت المقلوب المجنّح، نحو قول الشّاعر[٤]:

ساقِ هذا الشّاعر الحيـ

ـن إلى من قلبه قاس

سار حي القوم فالـ

ـهم علينا جبل راس

فقد تمّ قلب كلمتين اثنتين وقعتا في طرفي البيت هما: (ساق، قاس)، و (سار، رأس)، وهذا ندعوه الجناس المقلوب.

- **قلب البعض:**

[١] التّفتازاني: شروح التّلخيص، ج٤/٤٥٩.

[٢] الزّهراني، صالح: جماليّات القلب في البلاغة العربيّة، ص٤٠٥.

[٣] الزّهراني، صالح: جماليّات القلب في البلاغة العربيّة، ص٤٠٥-٤٠٦.

[٤] الرّازي، فخر الدّين: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، علّق عليه: د. نصر الله حاجي مفتي أوغلى، دار صادر، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤م، ص٦٥.

يتجلّى قلب البعض في "قلب بعض حروف الكلمة، ومنه قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: اللهمّ استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، وقول بعضهم: رحم الله امرأ أمسك ما بين فكّيه، وأطلق ما بين كفّيه، وقول أبي الطّيّب:

ممنّعة منعّمة رداح

يكلّف لفظها الطّير الوقوعا"[١]

فنجد القلب في (ممنّعة، منعّمة)، وقد أعطى إيقاعاً جميلاً، لاءم سياق الغزل في البيت السّابق.

- **جناس القلب في الألفاظ:**

وهذا يتمّ بأن "يجعل المقدّمة مؤخّراً والمؤخّر مقدّماً، كقوله تعالى: ﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ**﴾[٢]، وهذا القلب في الألفاظ يجعل الإيقاع ساحراً، ويشدّ المتلقّي لتفاعل الدّلالة والموسيقا"[٣].

ونجد القلب في البديع اللفظي في الجناس النّاقص، أو ما نسمّيه جناس القلب، ويتمثّل باختلاف اللفظين المتجانسين في ترتيب الحروف، واتّحادهما في النّوع والعدد والهيئة، لكن في أحد اللفظين قُدِّمت بعض الحروف، وأُخّرت في اللفظ الآخر[٤]، وهذه النّظرة العامّة التي خصّصناها فيما سبقنا الإشارة إليه، لكن لو تأمّلنا الحالة الثانية المتمثّلة بالقلب، لوجدنا أنّ القلب نوع من المحسّنات اللفظيّة وأساسه: "أن يكون الكلام بحيث لو عكسته وبدأت بحرفه الأخير إلى الأوّل كان الحاصل بعينه هو هذا الكلام، ويجري في النّثر والنّظم"[٥]، ولهذا الجناس نوعان؛ أحدهما يتمّ بقلب الحروف، والآخر بقلب الكلمات.

- **قلب الحروف:**

وهو ما كان "أوّله وآخره على جهة الاستواء، وهو قليل نادر صعب"[٦]، وهذه الصّعوبة تتأتّى من اختلاف المعنى غالباً لاختلاف مواضع الحروف في المفردة.

ومن مواقع القلب الحاصل في الحروف قوله تعالى: ﴿**كُلٌّ فِي فَلَكٍ**﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿**وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ**﴾[٨]، ونراه في الشّعر في كثير من الأمثلة، نحو قول الشّاعر:

أرانا الإله

[١] الخطيب القزوينيّ: الإيضاح في علوم البلاغة، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدّين، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م، ص٣٤١.

[٢] سورة الأنعام، الآية ٩٥.

[٣] ابن قيّم الجوزيّة: تهذيب الإمام، تحقيق: الفقي، مطبعة السّنّة المحمّدية، ط١، ١٩٤٩ م، ج٥/١٧٠.

[٤] ينظر: التّفتازاني: شروح التّلخيص، ج٤/٤٥٩.

[٥] المصدر السّابق، ج٤/٤٥٩.

[٦] العلوي، يحيى: الطّراز، ج٣/٩٦.

[٧] سورة الأنبياء، الآية ٣٣.

[٨] سورة المدثّر، الآية ٣.

هلالاً أنارا[١]

فقد حدث القلب في مصراع البيت، وتغيّرت الكلمتان (أرانا، أنارا)، (الإله، هلالاً)، معطياً إيقاعاً موسيقيّاً جميلاً.

- **قلب الكلمات:**

وهو قلب يحدث في حالات كثيرة تقلب فيها المفردات، نحو:

عدلوا فما ظلت لهم دول

سعدوا فما زالت لهم نعم

بذلوا فما شحّت لهم شيم

رفعوا فما زلت لهم قدم

وهذا للدّعاء لهم، فإذا قلبت كلماته صارت دعاء عليهم، وهو:

نعم لهم زالت فما سعدوا

دول لهم ظلمت فما عدلوا

قدم لهم زلّت فما رفعوا

شيم لهم شحّت فما بذلوا[٢]

والقلب في الألفاظ عندما يستدعي قلباً مفرداتيّاً يتحوّل من قلب إلى جناس مقلوب، وفي كليها إيقاع محبّب.

ويكون القلب في المحسّنات المعنويّة بحلول وذكر وهو ما يدعى بالعكس والتّبديل، وهذا يجعل مساحة التّذوّق البديعيّ مفعمة بالإيقاع الدّاخليّ الذي يولّده هذا القلب، ويرافقه إيقاع شعوريّ ينبع في أعماق المتلقّي.

والقلب المعنويّ هو "أن يقدّم جزء من الكلام على جزء آخر، ثمّ يؤخّر ذلك المقدّم على الجزء المؤخّر"[٣]، ويقع القلب المعنويّ في صور شتّى، منها:

- أن يكون العكس بين متعلقّي فعلين في جملتين، كقول الحماسيّ:

رمى الحدثان نسوة آل حربٍ

بمقدار سمدن له سمودا

فردّ شعورهنّ السّود بيضاً

وردّ وجوههنّ البيض سودا

[١] التّفتازاني: شروح التّلخيص، ج٤/٤٥٩.

[٢] ينظر: السّبكي، بهاء الدّين: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصريّة، صيدا – بيروت، ط١، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣م، ج٤/٤٦٠.

[٣] التّفتازاني: شروح التّلخيص، ج٤/٤٢٨.

- أن يقع العكس بين أحد طرفي الجملة، وما أضيف إليه كقول بعضهم: عادات السّادات، سادات العادات.

- أن يقع العكس بين لفظين في طرفي جملتين، كقول المتنبّي:

فلا مجد في الدّنيا لمن قلّ ماله

ولا مال في الدّنيا لمن قلّ مجده[١]

ونجد القلب في المحسّنات المعنويّة قلب يطرأ على عمق الدّلالة، جاعلاً وجهة الأثر في المتلقّي تنحو نحو التّوغّل في زاويةٍ بكسر أفق توقّعه، فإذا به ينشد وراء ظاهرة القلب باحثاً عن أرضِ الدّلالة، منشيّاً بحصوله على قيمها المعنويّة وقوالبها الفنّيّة.

٣- أنماط ظاهرة القلب في علم المعاني:

القلب في علم المعاني هو خروج الكلام عن مقتضى الظّاهر، وهذا الخروج قد يكون لفظيّاً أو غير لفظيّ، وفقاً للآتي:

١- القلب اللفظي:

يتمثّل القلب اللفظيّ في "أن يكون الدّاعي إليه من جهة اللفظ، بأن تتوقّف صحّة اللفظ عليه، ويكون المعنى تابعاً"

٢- القلب المعنويّ:

أن يكون "الدّاعي للقلب من جهة المعنى، وذلك لتوقّف صحّته عليه، ويكون اللفظ تابعاً"[٢].

للقلب في علم المعاني صورتان:

أ- قلب الإسناد: "وهو ما كان واقعاً في الإسناد أو التّركيب، وخارجاً عن مقتضى الظّاهر، بسبب جعل المتكلّم أحد أجزاء الكلام مكان جزء آخر، والآخر مكانه، مع ثبوت حكم كلّ واحد منهما على الآخر" [٣].

ب- قلب القصر: وهو "تخصيص أمر بصفة مكان أخرى، وتخصيص صفة بأمر مكان آخر"[٤]، ويتراءى من التّعريف السّابق أنّ المخاطَب يعتقد عكس الحكم الذي أثبته المتكلّم، وهذا ما يعطي السّياق دلالة خارجة عن مقتضى الظّاهر.

وقلب الإسناد هو: "أن يشمل الإسناد إلى شيء والمراد غيره"[٥]، والمعاني دائماً منوطة بآليّات ابتكار، وعندما يصيبها القلب فهو قلب إبداعيّ غرضه الوصول إلى دلالة تعجز اللغة المعياريّة

[١] ينظر: الزّهراني، صالح: جماليّات القلب في البلاغة العربيّة، ص٤١٠.

[٢] فيّود، بسيوني: علم المعاني، مؤسّسة المختار، القاهرة – مصر، ط١، ١٩٩٨م، ج٢٤٤/١.

[٣] اليحيى، سامي: القلب البلاغيّ في الحديث الشّريف، ص٤٢٤١-٤٢٤٢.

[٤] القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمّد خفاجي، دار الجيل، بيروت – لبنان، ط٣، ج١٥/٣.

[٥] أبو عبد الله الزّركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمّد إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، ط١، ١٩٥٧م، ج٢٨٨/٣.

عن الإفصاح عنها، وقلب المعنى هو "أن يكون معنى الثاني نقيض المعنى الأوّل، سُمّي بذلك لقلب المعنى إلى نقيضه، كقول أبي الشّيص:

أجد الملامة في هواك لذيذة

حبّاً لذكراك فليلمني اللوّم

وقول أبي الطّيّب:

أأحبّه وأحبّ فيه ملامة

إنّ الملامة فيه من أعدائه

فإنّه ناقض به قول أبي تمّام:

ونغمة معتفٍ جدواه أحلى

على أذنيه من نغم السّماع

وقد تبعه البحتري فقال:

نشوان يطرب للسّؤال كأنّما

غنّاه مالك طيء أو معبد"[١]

نجد هناك تغييراً في البناء اللغويّ وما يرافقه من معنى، ونجد تبايناً في مستوى الفصاحة الذي حمله كلّ بيت من الأبيات الشّعريّة السّابقة، وقد قال الجرجاني: "اعلم أنّك إذا سبرت أحوال هؤلاء الذين زعموا أنّه إذا كان المعبّر عنه واحداً، والعبارة اثنين، ثمّ كانت إحدى العبارتين أفصح من الأخرى وأحسن، فإنّه ينبغي أن يكون السّبب في كونها أفصح وأحسن اللفظ نفسه، وجدتهم قد قالوا ذلك من حيث قاسوا الكلامين على الكلمتين، فلمّا رأوا أنّه إذا قيل في الكلمتين إنّ معناهما واحد، لم يكن بينهما تفاوت، ولم يكن للمعنى في إحداهما حال لا يكون له في الأخرى، ظنّوا أنّ سبيل الكلامين هذا السّبيل، ولقد غلطوا فأفحشوا؛ لأنّه لا يتصوّر أن تكون صورة المعنى في أحد الكلامين أو البيتين، مثل صورته في الآخر البتّة، اللهم إلا أن يعمد عامد إلى بيت فيضع مكان كلّ لفظة منه لفظة في معناها، ولا يعرض لنظمه وتأليفه"[٢].

ويبدو أنّ المعاني ليست فقط دلالات تعبير، بل هي أنماط من ألوان التّفكير التي يحاول المبدع أن يستثمر لها ما طاب له من أدوات، فاهتدى إلى القلب ليكون شكلاً مميّزاً من تلك الأشكال.

المبحث الثالث: عيوب ظاهرة القلب:

اختلفت الآراء حول ظاهرة القلب لدى البلاغيين، فرفضه بعضهم مبيّناً أنّ القلب إبهام، ونحن في لغتنا نسعى إلى الإفهام لا الإبهام، وممّا أورده الرّافضون قولهم:

[١] القزوينيّ: الإيضاح في علوم البلاغة، ص٥٧٢-٥٧٣.

[٢] الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، قرأه: محمود محمّد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، د.ت، ص٤٨٦-٤٨٧.

الغاية من البيان هي الإفهام والإمتاع، والقلب يناقض ذلك[١]، ويذكر العسكر أنّ القلب يسبذب "في التّركيب بين أجزاء الكلام –أحياناً– تعمية في المعنى، ولبساً في الدّلالة، وتشويشاً على السّامع في الوصول إلى المعنى؛ لأنّ الكلام صرف عن وجهه الصّحيح، فجاء عكساً للمطلوب، وخلافاً للمقصود"[٢].

ويرفض القرطاجنّي ظاهرة القلب، قائلاً: "كلّ كلام يمكن حمله على غير القلب بتأويل لا يبعد معناه، فليس يجب حمله على القلب؛ إذ إنّ حمل الكلام على القلب في غير القرآن إذا أمكن حمله على الاستقامة تعسّف شديد، فكيف في الكتاب العزيز"[٣]، ويبدو أنّ نظرة المعارضين لفكرة القلب كانت نظرة متشدّدة نوعاً ما؛ لأنّهم رفضوا القلب رفضاً تامّاً، وعدّوه بعيداً عن الفصاحة.

وبتأمّلنا أقوال علمائنا في القلب، نجد من الرّافضين لهذه الظّاهرة البلاغيّة: سيبويه في كتابه[٤]، وقدامة بن جعفر في نقد الشّعر[٥]، وابن سنان في سرّ الفصاحة[٦]، والقرطاجنّي في منهاج البلغاء[٧].

وبدراسة آرائهم نحصل على نتيجة محوريّة أساسها أنّهم عدّوا القلب أساساً لحدوث اللبس الدّلاليّ، وهذا ما وضّحه سيبويه عندما قال، مبيّناً عدم استحسانه وقبوله للقلب: "أمّا قوله: أدخل فوه الحجر، فهذا جرى على سعة الكلام، والجيد أدخلت القلنسوة في رأسي، وليس مثل اليوم والليلة؛ لأنّهما ظرفان، فهو مخالف له في هذا موافق له في السّعة، قال الشّاعر:

ترى الثّور فيها مدخل الظّلّ رأسه

وسائره بادٍ إلى الشّمس أجمع

فوجه الكلام في هذا كراهيّة الانفصال"[٨].

وهذا يُبيّن أنّ نظرة الرّفض التي أقرّها سيبويه ليست نظرة اعتباطيّة، إنّما كانت نظرة مبنيّة على أسس موضوعيّة رآها سيبويه.

ووجد قدامة بن جعفر وتبعه المرزباني إلى ما ذهب إليه سيبويه، فهؤلاء جميعاً رفضوا ظاهرة القلب، ووجوهه، وأموره، وعدّوه عيباً؛ لأنّ الذي يعجز عن انتقاء مفرداته في سياقها، ليس بمبدع، وفي هذا قيل: "الشّاعر الذي لا يتمكّن من امتلاك زمام لغته قد يضطّره الحفاظ على

[١] ينظر: الزّهراني، صالح: جماليّات القلب في البلاغة العربيّة، ص٣٧٩.

[٢] العسكر، عبد المحسن: الإنصاف في المصطلحات البلاغيّة المنفيّة من القرآن، دار التّوحيد، الرّياض، ط١، ٢٠١٦م، ص١٧.

[٣] أبو الحسن القرطاجنّي: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمّد ابن الخوجة، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت – لبنان، ط٣، ١٩٨٦م، ص١٨٣.

[٤] ينظر: سيبويه: الكتاب، تحقيق: عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، ط٣، ١٩٨٨م، ج١/١٨١.

[٥] ينظر: ابن جعفر، قدامة: نقد الشّعر، تحقيق: د. محمّد خفاجي، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، ط١، ص٢٠٩.

[٦] ابن سنان الخفاجي: سرّ الفصاحة، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٢م، ص١١٤.

[٧] القرطاجنّي: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص١٨٣.

[٨] سيبويه: الكتاب، ج١/١٨١.

القيم الإيقاعيّة في النّصّ إلى إحالة المعنى، وقلبه على غير جهته، كما فعل عروة بن الورد في قوله:

فلو أنّي شهدت أبا سعاد

غداه غدا بمهجته يفوق

فديت بنفسه نفسي ومالي

وما آلوك إلّا ما أطيق[١]

قال قدامة: "أراد أن يقول: فديت نفسه بنفسي، فقلب المعنى"[٢].

ولو تأمّلنا قول قدامة لوجدنا أنّ اللغة العربيّة لا تنسجم مع الجماليّات التي يحاول بعضهم ربط القلب بها؛ لأنّ القلب، كما يرى هو ومن مثله في الرّأي، يشتغل في الظّاهر الإيقاعيّ للنّصّ الشّعريّ، والظّاهر الشّكليّ للنّصّ النّثريّ، ويُفقَد الاهتمام بالمعنى الواضح.

المبحث الرّابع: فوائد ظاهرة القلب:

نظر كثير من البلاغيّين، ولاسيّما المحدثين منهم، ظاهرة القلب، ووجدوا أنّه مفيد؛ لأنّه: "دلالة على سعة اللغة وقدرتها على التّنوّع في التّعبير"[٣]، "لأنّ المتكلّم يصل به إلى كمال البلاغة"[٤]، وذلك "إنْ تضمّن اعتباراً لطيفاً قُبِلَ، وإلّا رُدّ"[٥].

كما رأى البلاغيّون أنّ ظاهرة القلب تورث "الكلام ملاحة، ولا يسجع عليها إلا كمال البلاغة"[٦]، وهذه الظّاهرة من الدّلائل على "مرونة اللغة"[٧].

ومن جهة أخرى فإنّ ظاهرة القلب تدلّ على "الإيجاز والاختصار، وذلك في بعض المواطن دون أخرى، يظهر ذلك عند المبرّد حين تعرّض للقلب في كتاب الكامل، واشترط لحسنه شرطاً، فقال: وقال الفرزدق، ونزل به ذئب فأضافه:

وأطلس عسّال وما كان صاحباً

دعوت لناري موهناً فأتاني

فقوله: (دعوت لناري) من المقلوب، إنّما أراد رفعت له ناري، والكلام إذا لم يدخله لبس جاز القلب للاختصار"[٨].

[١] الزّهراني، صالح: جماليّات القلب في البلاغة العربيّة، ص٣٨٠.

[٢] ابن جعفر، قدامة: نقد الشّعر، ص٢١٠.

[٣] أبو زكريا الفرّاء: معاني القرآن، تحقيق: أحمد النّجاتي، ومحمّد النّجّار، وعبد الفتّاح الشّلبي، الدّار المصريّة للتّأليف والتّرجمة، مصر، مصر، ط١، ج١٣٣/٢.

[٤] المصدر السّابق، ج١٦٣/٢-١٦٤.

[٥] التّفتازاني: شروح التّلخيص، ج٤٨٧/١.

[٦] السّكّاكي: مفتاح العلوم، ص٢٠٩.

[٧] اليحيى، سامي: القلب البلاغيّ في الحديث الشّريف، ص٤٢٤٨.

[٨] المبرد: الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربيّ، القاهرة – مصر، ط٣، ١٩٩٧م، ج٢٩٠/١.

وظاهرة القلب وسيلة من وسائل الكشف عمّا يتمتّع به المتكلّم من عبقريّة وبلاغة[١]، وهي تعطي معنى المبالغة، يقول الزّجّاج: "وقوله عزّ وجلّ: ﴿**خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ**﴾[٢]، قال أهل اللغة: المعنى خلقت العجلة من الإنسان، وحقيقته يدلّ عليها، و (كان الإنسان عجولاً)، وإنّما خوطبت العرب بما تعقل، والعرب تقول للذي يكثر الشّيء: خلقت منه، كما تقول: أنت من لعب، وخُلقت من لعبٍ، نريد المبالغة بوصفه باللعب"[٣].

إنّ اشتمال القلب على القيم الفنّيّة يجعل منه بُعداً من أبعاد الرّسم بالكلمات، وعندما نقول الرّسم بالكلمات فنحن لا ندخل ميدان الإنشاء؛ لأنّ الرّسم إبداع فنّي يجسّد فيه الرّسّام رؤى واقعيّة، ويحوّلها إلى لون، إنّه اللون ذاته الذي يبدعه المبدع، وهو يرسم بالقلب دلالة خاصّة تختلف عن الأخريات.

ونجد ممّن أيّد ظاهرة القلب البلاغيّ ووجدها مفيدة، السّكّاكي والفرّاء، والقزوينيّ وشُرّاح التّلخيص، وهذه الفوائد تختلف من مقام إلى آخر، وتنسجم مع حالة كلّ من المتكلّم والمخاطَب.

وقد عدّه كثير من العرب من باب المجازات العربيّة في كلامنا، وهو نوع من جماليّات اللغة العربيّة "وسننها في القول"[٤].

إنّ "الأديب أو النّاقد محتاج إلى العلم بطبائع الحروف ومخارجها والألفاظ ومعانيها وأنواعها واشتقاقاتها، حتّى يضع كلّ ذلك في مواضعه إنْ كان أديباً، ويمدحها أو يذمّها بحقّ إن كان ناقداً، ورجع ذلك كلّه إلى علم الصّرف؛ لأنّه العلم الذي يبحث في الحروف"[٥]، وهذا العلم يجعل الذين يؤيدون القلب يجدون فيه فنّاً؛ لأنّه يستدعي خبرة التّعامل مع الحروف والمفردات.

إنّ ميل البعض إلى فنّ القلب، ونفور آخرين منه زاده شأناً وزاد الحوار حول هذه الظّاهرة البلاغيّة التي وجدناها في قرآننا وشعرنا وحياتنا.

ويرى بعض البلاغين أنّ القلب "إذا تضمّن لطيفاً، وله غايات تسوّغ قبوله، ومحاسن بلاغيّة وقيم فنّيّة ترجّح قبوله، ولم يكن عائقاً في طريق الفهم والإدراك، وإلّا كان قبيحاً مسترذلاً مرفوضاً، وسبب قبولهم له أنّه من أساليب العرب، ومجازاتهم في الكلام، وسننها في القول، ولكونه ثابت في القرآن الكريم، والحديث النّبويّ الشّريف والشّعر العربيّ"[٦].

واللطافة أساس القبول؛ لأنّ الغامض الفظَّ سبيل من سبل نفور المخاطَب من الخِطاب الذي يحوي تلك الفظاظة، وممّا قاله المؤيّدون أنّ "هذا النّمط مُسمّى فيما بيننا بالقلب، وهي شعبة من

[١] ينظر: اليحيى، سامي: القلب البلاغيّ في الحديث الشّريف، ص٤٢٤٨.

[٢] سورة الأنبياء، الآية ٣٧.

[٣] أبو إسحاق الزّجّاج: معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٨م، ج٣/٣٩٢.

[٤] ابن فارس، أحمد: الصّاحبي، ص٣٢٩.

[٥] مرزوق، حلمي علي: في فلسفة البلاغة العربيّة (علم المعاني)، ١٩٩٩م، ص٢٣.

[٦] ابن فارس، أحمد: الصّاحبي، ص٢٠٨.

الإخراج لا على مقتضى الظّاهر، ولها شيوع في التّراكيب، وهي ممّا يورث الكلام ملامة، ولا يشجّع عليها إلا كمال البلاغة، وتأتي في الكلام، وفي الأشعار، وفي التّنزيل"[١].

ويمكن القول: إنّ القلب لدى المؤيّدين كان طريقة من الطّرائق الجديدة للإفصاح عن المعاني بثوب جديد.

خاتمة:

في نهاية هذا البحث، يمكن القول: إنّ لغتنا العربيّة واسعة، مليئة بكنوز الفصاحة وأساليب البلاغة، وهذا ما أسهم في وصولنا، ونحن نتمعّن في ظاهرة القلب البلاغيّ، إلى النّتائج الآتية:

- ظاهرة القلب من السّمات التّعبيريّة والأساليب البلاغيّة في لغتنا العربيّة.
- تتعدّد أغراض القلب البلاغيّة، ومقاصده البيانيّة، وفقاً لسياقَي المقام والمقال.
- منح المتن النّصِّيّ عمقاً دلاليّاً يعجز السّياق المعياريّ عن تقديمه.
- تمنح ظاهرة القلب البلاغيّ الكلام قوّة في المعنى وجمالاً في المبنى.
- تساعد هذه الظّاهرة على إشراك المُتلقّي في العمليّة الإبداعيّة؛ لأنّ ظاهرة القلب تحتاج إلى تأمّل وحثّ الخيال للقبض على مكامن البلاغة والفصاحة.
- تُمثّل ظاهرة القلب شكلاً فنّيّاً من أشكال العدول، وهو شكل مرتبط بمخالفة مقتضى الحال.
- اختلف البلاغيّون حول ظاهرة القلب البلاغيّ ما بين مؤيّد ورافض لها.

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- الآمدي: الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتري، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة – مصر، ط٢، ١٩٧٢م.

٢- ابن الأثير: المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تحقيق: محمّد عبد الحميد، المكتبة العصريّة للطّبّاعة والنّشر، بيروت – لبنان.

٣- أبو إسحاق الزّجّاج: معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٨م .

٤- التّفتازاني: شروح التّلخيص، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان.

٥- الجرجاني، عبد القاهر: أسرار البلاغة، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة – مصر، ط١، ١٩٨٥م.

٦- الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، قرأه: محمود محمّد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، د.ت.

[١] أبو يعقوب السّكاكي: مفتاح العلوم، ضبط: نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، ط٢، ١٩٨٧م، ص٢٠٩.

٧- ابن جعفر، قدامة: نقد الشّعر، تحقيق: د. محمّد خفاجي، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، ط١.

٨- ابن جنّي: الخصائص، تحقيق: محمّد علي النّجّار، الدّار العلميّة، القاهرة – مصر.

٩- أبو الحسن القرطاجنّي: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمّد ابن الخوجة، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت – لبنان، ط٣، ١٩٨٦م.

١٠-الخطيب القزوينيّ: الإيضاح في علوم البلاغة، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدّين، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م.

١١-الرّازي، فخر الدّين: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، علّق عليه: د. نصر الله حاجي مفتي أوغلى، دار صادر، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤م.

١٢-أبو زكريا الفرّاء: معاني القرآن، تحقيق: أحمد النّجاتي، ومحمّد النّجّار، وعبد الفتّاح الشّلبي، الدّار المصريّة للتّأليف والتّرجمة، مصر، ط١.

١٣-الزّهراني، صالح: جماليّات القلب في البلاغة العربيّة، مجلّة جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، العدد١٩، جمادى الأولى، ١٤١٨ هـ.

١٤-السّبكي، بهاء الدّين: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصريّة، صيدا – بيروت، ط١، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣م.

١٥-أبو سعيد البيضاوي: تفسير البيضاوي، تحقيق: محمّد حلّاق، ومحمود الأطرش، دار الرّشيد، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٠م.

١٦-أبو سعيد السّيرافي: ضرورة الشّعر، تحقيق: رمضان عبد التّوّاب، دار النّهضة العربيّة، بيروت –لبنان، ط١، ١٩٨٥م.

١٧-السّكّاكي: مفتاح العلوم، المكتبة العلميّة الجديدة، بيروت – لبنان.

١٨-ابن سنان الخفاجي: سرّ الفصاحة، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٢م.

١٩-سيبويه: الكتاب، تحقيق: عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، ط٣، ١٩٨٨م.

٢٠-أبو عبد الله الزّركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمّد إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، ط١، ١٩٥٧م.

٢١-العسكر، عبد المحسن: الإنصاف في المصطلحات البلاغيّة المنفيّة من القرآن، دار التّوحيد، الرّياض، ط١، ٢٠١٦م.

٢٢-العلوي، يحيى: كتاب الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٠م.

٢٣-ابن فارس، أحمد: الصّاحبي في فقه اللغة العربيّة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق: عمر الطّبّاع، مكتبة المعارف، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩٣م.

٢٤-فيّود، بسيوني: علم المعاني، مؤسّسة المختار، القاهرة – مصر، ط١، ١٩٩٨م .

٢٥-القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمّد خفاجي، دار الجيل، بيروت – لبنان، ط٣.

٢٦-ابن قيّم الجوزيّة: تهذيب الإمام، تحقيق: الفقي، مطبعة السّنّة المحمّدية، ط١، ١٩٤٩ م.

٢٧-المبرد: الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربيّ، القاهرة – مصر، ط٣، ١٩٩٧م.

٢٨-المبرّد: ما اتّفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد، تحقيق: أحمد أبو رعد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، الكويت، ط١، ١٩٨٨م.

٢٩-مرزوق، حلمي علي: في فلسفة البلاغة العربيّة (علم المعاني)، ١٩٩٩م.

٣٠-ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت – لبنان، د.ت.

٣١-ناصف، مصطفى: دراسة الأدب العربيّ، دار الأندلس، بيروت – لبنان، ط٣، ١٩٨٣م.

٣٢-ابن هشام الأنصاريّ: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: مازن مبارك، ومحمّد حمد الله، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط٥، ١٩٧٩م.

٣٣-اليحيى، سامي: القلب البلاغيّ في الحديث الشّريف، مجلّة كلّيّة اللغة العربيّة بالمنوفيّة، العدد٣٥، ديسمبر ٢٠٢٠م.

٣٤-أبو يعقوب السّكاكي: مفتاح العلوم، ضبط: نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، ط٢، ١٩٨٧م.